٣ - شاعر مجهول

للأستاذ حسني كنعان

لما حط الصقر المصري ابراهيم باشا بثقله على « طورس » وأخذ يتوثب ويتحفز من أعاليه على البلقان ، ليغزوها كما غزا البلاد الشامية ، سأله أحد الدبلوماسيين الفرنسيين ...

— إلى أين يذهب بفتوحاته ، وهلا يتوقف عند حدود تركيا؟ فأجاب:

— إنني أتابع التقدم إلى البلاد التي لا أستطيع أن أتفاهم مع أهلها باللغة العربية

— ثم سأله أحد جنوده الذين لهم دالة عليه عندما كان يزجي الصفوف ويهيئها للقتال ، كيف تتحدث سموكم بهذا الشكل عن الأتراك ، وأنت من أصل تركي ، وفرع أناضولي ...؟ فأجاب :

— أجل أنا من نبتة تركية ، ولقد ولدت في البلقان ولكنني عشت في مصر ، وإن أرض هذه البلاد وسماءها جعلت مني عربيا، صهرتني هذه التربة الخصبة ببوتقتها ، ومصرتني بعصريتها ...

وقائد هذا شأنه وهذا حبه للعرب قمين بأن يكون محبوب جنوده المصريين والشاميين ، وخليق بهذه المدائح التي خلد الشاعر الجندي اسمه فيها . وما كانت هذه الأماديح مقتصرة في تخليد مآثره في الأشعار والقصائد العامرة فحسب، بل تعدتها إلى الإشادة بذكراه من قبل شاعرنا في الموشحات والمواويل والقدود والأناشيد . ومن هذا القبيل قوله من موشح يصف به غزو عكا مما يدل على أن الشاعر كان في ركابه يوم غزاها . ولقد عثرت في الديوان على موشح من نغمة الجهاركاه يصف الشاعر به هذه النزوة ، والموشح ممنون « بعنوان زارني الحبيب »

صاحب السعود قاهر الأسود ... الغازي المضنفر قائد الجنود
في عكا أقام ساعة الزحام ... علم القيام رتبة السجود
رتب الألوف حولها صفوف ... عود السيوف فرقة الصمود
نظرت العساكر كالأسد الكواسر ... غدت القنابر تشبه الرعود
لاحت البيارق فوقهم خوافق ... جازت الخنادق وهي كالفهود
دقت الصنوج والطبل الرجوج ... أبحر تموج ما لها خمود
والجيش الجهادي مطلق للأيادي ... ألحق الأعادي في بني ثمود
والسور العظيم صار كالرميم ... والثغر الغريم يلطم الخدود
أول النهار خيم الغبار ... وانتهى الحصار وابتدا الصعود
ذاك اليوم كان أوحد الزمان ... لا تسل فلان . الدنيا شهود
أيها القدير أيد الوزير ... الغازي الشهير واعطه الخلود

ما كان الشاعر متقاليا ولا متزلفا في مدحه هذا القائد الفذ ، وإنما كان عاشقا له معجبا به ولا سيما بعد أن صحبه مدة، وعرف مراميه ونزعاته ، وقد أعلن الأمان على الجيران في إعلانات خاصة عند ابتداء الفتح ودخوله القدس ، وأخرج منادين ينادون في الطرقات بأن عدالته تشمل الجميع على السواء ، وأنه يفتح قصره لسماع كل شكاة ورفع كل ظلامة — وأن جميع الطوائف حرة في معتقداتها ، وممارسة طقوسها الدينية والمذهبية كيفما تريد، وأنه سيحذو في هذا السبيل حذو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ويسير في النهج على منواله ، وهذا ما حبب الشاعر به ، وحبب الرعية إليه مما حز في نفوس الأمم الاستعمارية الطامعة في تركيا وجعلها تعجل بإطفاء هذا القبس المتوهج الذي لو ترك وشأنه لاهتدى بأضوائه خلق كثير .. فوضع شيخ المستعمرين البراقيل في تقدم النور ، وسارع لإطفائه ، حيث ألب على الفاتح العظيم شعوبه الراضية به . وأقام الثورات من خلف جيشه في سواحل لبنان . . . وفي جبل العرب أعني جبل الدروز ، ونزل شيخ « الشياطين » . . . من الشواطئ وأعمل المكائد في قفاه ، فخشي القائد شر الفتن الداخلية والثورات المحلية وجلا عن بلاد الشام ، وعاد الجيش التركي من حلب بمساعدة الشيطان الرجيم شيخ المستعمرين . . واحتل البلاد من جديد وأخذ يتتبع خطا أتباع الباشا الفاتح ، لينكل بهم ويثأر منهم، وكان شاعرنا في طليعة المغضوب عليهم فما نجاه من حبل المشنقة سوى فراره إلى مصر مع القائد الكبير . . . فوجد هناك في القاهرة آفاقا جديدة في سخاء الشعر مفتحة أمامه فحلق في أجوائها كل محلق، وتعرف على أدبائها وشعرائها وامتدح أمراءها وزعماءها ومدح مآثرها ومساجدها وحصونها وقلاعها . والديوان مفعم بمآثر مصر الخالدة ، ولقد امتدح قلعة محمد علي باشا الكبير بقصيدة عامرة تقع في (٣٢) بيتا أختزل منها بعض أبيات لضيق

القام لأبرهن بها على تأثير هذه الآفاق الجديدة فى نفسه

عروس كنوز قد تحلت بمسجد ... مكللة تيجانها بالزبرجد
أم الجنة العليا تزخرف قاعها ... بأبهج ياقوت رأيهى زمرد
أم المكرمات الآصفية أبدعت ... هيولى أعاجيب بصورة مسجد
فذا مسجد معناه يشهد أنه ... بمعمره المسعود من غير مسعد
فدع قصر غمدان وأهرام هرمس ... وإيوان كسرى وانظرنه لتهتدى
ودع إرماذات السوارى وحسنها ... وعرشا لبلقيس كصرح ممرد
ودع أموى الشام وانزل بمصرنا ... وبادر لهذاك البناء الممد
لئن جاء فى الدنيا وحيدا ومفردا ... فلا غرو فالنشى له ذو تفرد
محمد آراء على مآثر ... عزيز ومولى كل سام ممجد
هو الشمس لم يحجب سناها غمامها ... ولا أنكرت أضواءها عين أرمد
وكم منشآت كالروامى بنى لها ... فمجباجرت فى البحر ذات تشيد
معاليه جلت عن نظير وأصبحت ... تباهى جميع العالمين بمفرد
فعرج على تلك المآثر وابتهج ... بآثار هذاك الخديوى الممجد
وعاين بناء يستضئ منزها ... لطرفك فى روض البهاء المخلد
أمين بنى الجندى قال مؤرخا ... تريك على قدر العزيز محمد

فأنت تعرف من ثنايا هذه الأبيات مقدار الأثر البالغ الذى تركته فى نفسه هذه القلعة التاريخية العظيمة التى يصفها فى شعره بمنزلة قصر غمدان وأهرام هرمس، وإرم ذات الأسوار والمنعة، ويضعها فى القداسة بمنزلة الأموى فى دمشق، بيد أن هذه القصيدة على إعجاب ناشر الديوان بها، وتلك المقدمة النفيسة التى قدمها لها فى الديوان، لا أراها تعدل فى الروعة أشعاره فى التزليات والأماديح والتشاطير والتخاميس، وله فيها أبيات يعجز القلم الثر عن وصفها لجودتها ورواتها وجمالها وتنسيقها. ومتى أتينا على بحث هذا النوع من الشعر نريك نوعا منها، ويبدو أن صاحبنا لم يك ذا باع طويل فى الوصف، ومن أبيات له من هذا القبيل فى وصف الشطرنج أرى ألا مندوحة عن نشرها للاطراف فقط وليس للفن، وهى إن دلت على شئ فإنما تدل على هيامه بهذه اللعبة التى كانت سلوته وسلوة القائد المصرى فى ساعات الاستجمام والراحة..

أقول إن لاعب الشطرنج ... كفارس هاج ببحر السرج
ولا يزال ناصب الفخاخ ... يصطاد من جاء من الرخاخ
كأنه ليث الشرى المفترس ... لا مي إن أرخى عنان الفرس
وصالت الأفيال للأفيال ... فى حومة القتال والجدال
وابتدرت أمامها البيادق ... تسعى فمنها سابق ولاحق
وبارز الشاه أخوه الفرز ... وانهتك الستر وزال العز
وميز الغالب بالتأييد ... وبان فضل باعه المديد
وأقبل النصر من الإله ... وانفصل الحرب بموت الشاه

ولا أنكر أن إقامته فى مصر صقلت شاعريته ورققت من حواشيه، بيد أن هذه الإقامة كانت مقتصرة على إظهار الولاء والمحبة للمضيف الكبير الذى أغدق على ضيفه الشاعر المنح الكثيرة والأعطيات، وكان جل هم الشاعر فى مصر أن يوسع آفاق علومه ومعارفه، ويتعرف إلى أكبر عدد ممكن من أرباب هذه الصناعة، أعنى صناعة الشعر والفن، وكان الوالى التركى يلح فى طلبه ليثأر منه جزاء وفاقا لما أحدثته أشعاره من دعاية موفقة للفاتح الكتسح الذى دانت له سلطة البلاد التى غزاها طوال هذه المدة

« يتبع »

دمشق — عيسى كنعان

الأمر المقدر

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

وهى القصة العالمية الواقعية الرائعة الخالدة للشاعر الفيلسوف « جوته » الألمانى

ثمنة ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد